

تجديد الفكر البلاغي بين العمق التراثي والبعد التداولي في الدرس اللساني المعاصر

Renewing rhetorical thought between the traditional depth and the pragmatic dimension in the contemporary linguistic lesson

ليلى بوعكاز

مخبر اللغة وتحليل الخطاب
جامعة جيجل 18000
جيجل / الجزائر
Bouakezleila@gmail.com

فريدة باسط*

مخبر اللغة وتحليل الخطاب
جامعة جيجل 18000
جيجل / الجزائر
Farida.basset@univ-jijel.dz

تاريخ الارسال: 2024/02/25 تاريخ القبول: 2024/12/16 تاريخ النشر: 2024/12/20

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن جوانب من القضايا التداولية مبثوثة في بعض مباحث التراث البلاغي والمتجلية في الاهتمام بأقطاب العملية التواصلية من (المتكلم، المخاطب، الكلام، المقام) من خلال الاحتفاء بمقاصد وأغراض المتكلم ومراعاة حال المخاطب مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ أي المقام. ومن هنا نسلط الضوء نحو دراسة وصفية نقدية كاشفة عن أصالة تراثنا البلاغي العربي، ومدى سعته وقابليته للتجديد بما يتناسب مع معطيات الدرس اللساني الحديث والمعاصر.

وتكمن أهمية نتائج هذا البحث في إحياء المصطلحات التراثية من خلال محاولة التأصيل للمصطلح الغربي في التراث البلاغي العربي، وفي ذلك إيجاد لمصطلحات علمية دقيقة وموحدة عند ترجمة المصطلحات الغربية إلى اللغة العربية. إضافة إلى إعادة قراءة التراث البلاغي وإعادة بعثه من جديد بما يتلاءم مع معطيات الدرس اللساني الغربي.

الكلمات المفتاحية: الدرس البلاغي؛ الدرس التداولي؛ السياق؛ مقتضى الحال (المقام)

* المؤلف المراسل.

Abstract:

This research paper aims to reveal aspects of pragmatic issues present in some sections of the rhetorical heritage manifested in attention to the poles of the communicative process (speaker, addressee, speech, position) through celebrating the purposes of the speaker and taking into account the situation of the addressee while matching the speech to the requirements of the situation. Hence, we shed light on a descriptive, critical study that reveals the originality of our Arab rhetorical heritage, the extent of its breadth and its ability to be renewed in a way that is consistent with the data of the linguistic lesson |

The results of this research lie In reviving traditional terminology by trying to root the Western terminology in the Arab heritage, and finding accurate and unified scientific terminology when translating Western terminology into the Arabic language. Resurrecting traditional terminology in a manner consistent with the data of the Western linguistic lesson.

Key words: rhetorical lesson, pragmatic lesson, Context, The situation requires (place).

مقدمة:

شهدت الدراسات البلاغية تحولات منهجية وإجرائية، فقد نشأت عند العرب قديما خادمة لعلوم مقصودة بالذات، كالتفسير والفقه والحديث، والمتتبع لنشأة البلاغة العربية يلحظ أن بدايتها لم تكن هدفا في ذاتها، وإنما كانت بغية الوقوف على أوجه إعجاز القرآن الكريم، وفهم أسرار ومقاصده، مما جعلها وسيلة للمفسرين والقراء، حتى اختلط مفهومها بالفصاحة عند كثير من اللغويين كونها تبحث في المعايير التي يجب أن يتصف بها الكلام بما يناسب المقام، مما يؤكد على ما عانتها البلاغة العربية في مراحلها المتأخرة من الاضطراب الفكري، كما عرفت فترة طويلة من الركود والجمود والانغلاق، وكثرت فيها الشروح والتلخيصات التي أصبحت محور اهتمام الدارسين. انتهت البلاغة العربية تعليمية في موضوعها ومنهجها وغايتها، مما أكسبها طابع المعيارية والذاتية في الحكم على الكلام.

هذا الوضع دفع الباحثين المحدثين إلى معاودة قراءة التراث نظرا لما يكتنزه من أسرار وقضايا تتطلب بحق عقلا نقديا يحسن القراءة الاستكشافية التي تجعل من مقولات التراث قادرة على استيعاب المعطيات العلمية الجديدة، في محاولة للتجديد وبعث التراث وإحيائه، حاول فيه المحدثون ربط البلاغة العربية بالعلوم المجاورة لها كاللسانيات وفروعها، من أسلوبية وتداولية ولسانيات النص قصد تجديد البلاغة وتطويرها ومسايرتها لمتطلبات العصر.

ومن هنا وجهنا بوصلتنا نحو دراسة وصفية ناقدة كاشفة عن أصالة تراثنا البلاغي ومدى سعته وقابليته للتجديد بما يتناسب مع معطيات الدرس اللساني المعاصر. فقد عرفت البلاغة كثيرا من جوانب القضايا التداولية ماثورة في مباحثها على الرغم من بعض الفروق بين الدرس البلاغي والدرس التداولي ، من حيث المرجعيات الفكرية والمعرفية، وكذا الآليات المنهجية والأدوات الإجرائية ، والمفاهيم الخاصة بكل منهما، إلا أنه قد نلني أوجه للتقارب بينهما، والمتمثل أساسا في مفهوم السياق في الدرس التداولي ، و مقتضى الحال في الدرس البلاغي العربي .

وهذه القضية يمكن عدها مساهمة جادة من لدن البلاغيين العرب التي تنبئ عن وجود ملامح تفكير تداولي في التراث العربي البلاغي . وسعيا منا للإحاطة بالموضوع من بعض جوانبه ، نورد بعض الأسئلة الهامة محاولة في ذلك الولوج إلى طبيعة الدرس البلاغي والكشف عن مظاهر التفكير التداولي في إطار دراسة ناقدة ومقارنة بين الدرس البلاغي والدرس التداولي ومدى تقاطعهما، والكشف عن أوجه الاختلاف والاتفاق بينهما من حيث زاوية الرؤية للموضوع، والأدوات الإجرائية والآليات المنهجية في تحليلهما للخطابات والنصوص . وبناء على ما سبق ذكره تتبادر إلينا ما يلي من تساؤلات:

- البلاغة والتداولية أية علاقة ؟
- فيم تتجلى مظاهر الاختلاف والائتلاف بينهما من حيث الموضوع والمنهج والمصطلح ؟
- هل تمثل مفاهيم (المقام) و(مقتضى الحال) بعدا تداوليا في الدرس البلاغي العربي ؟
- حيث يسعى البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف من خلال محاولة معرفة ماهية البلاغة والتداولية والظواهر البلاغية التي تجسد اشتغالا تداوليا فعليا من صميم الدرس البلاغي ، مع استحضار شواهد يتجلى فيها البعد التداولي في عدة ظواهر بلاغية، وقد مزج البحث جانبا نظريا وآخر تطبيقيا، ليلبغ الغرض ويصيب الهدف ويحقق ما كان مرجوا .

أولا: البلاغة والتداولية مراجعة في المرجعيات، التقاطعات، الحدود والإجراءات

لقد نبّه كثير من الباحثين في التراث العربي، اللغوي، النقدي والبلاغي إلى أسبقية البلاغة العربية على الاهتمام بالبعد التداولي بكل أشكاله وفي كل مستوياته، وإننا إذا نظرنا

إلى مجمل الانجاز البلاغي في ضوء التطورات التي شهدتها الدرس اللساني الغربي نجد بأن هذا التراث مازال محاورا يثير الدهشة من حيث اشتماله على قضايا وأفكار جليلة القدر عظيمة، على نحو ما نجده في الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة .

ولعل من الأسباب التي أحدثت ثورة حول تجديد وتطوير الدرس البلاغي العربي هي تلك التطورات اللسانية المتمثلة في مجمل النظريات والمناهج والمقاربات التي تطبق على النصوص والخطابات المختلفة. إلا أنه قد نلني أوجه للاختلاف والاتفاق بين الدرس البلاغي والدرس التداولي من حيث المرجعية ، الموضوع المنهج ، الغاية والمصطلح ، وهذا ما سنحاول رصده من خلال هذا البحث.

1. مفهوم البلاغة

يدل مصطلح البلاغة عند أهل اللغة، على حسن الكلام وفصاحته ليبلغ به المتكلم غرضه من الكلام، فلفظ البلاغة مأخوذ من قولنا: بلغ الشيء منتهاه وأدرك أقصاه.

أ/ البلاغة لغة

تعني الانتهاء والوصول، ومن معانيها الإيجاز، الفصاحة وحسن الكلام، وتقع البلاغة وصفاً للمتكلم والكلام دون الكلمة. أما الفصاحة في معناها اللغوي، فهي البيان والوضوح، وفلان فصيح؛ أي منطلق اللسان يعرف جيد الكلام من رديئه، والفصاحة تقع وصفاً للكلام والمتكلم والكلمة، نلاحظ أن المعنى اللغوي للبلاغة لا يختلف عن معنى الفصاحة فهما مترادفان، والمقصود البيان والوصول إلى المعنى الجيد بأوجز لفظ وأبلغ تعبير، أي التعبير الحسن الفصيح.

نجد أن أصل كلمة (بلغ) في المعاجم اللغوية تدور حول معنى وصول الشيء إلى غايته ونهايته « بلغ الشيء يبلغُ بلوغاً وبلاغاً؛ وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغاً وبلغه تبليغاً »¹

أما في مفهومها الاصطلاحي عند علماء العربية، فهو لا يختلف عن المعاني التي يحيل إليها المعنى اللغوي، والتي تنحصر في معنى الوصول والانتهاء إلى نفوس المخاطبين على نحو ما ذكره "أبو هلال العسكري" في كتابه الصناعتين « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسه، مع صورة مقبولة ومعرض حسن »²

2. مفهوم التداولية

من الصعب إيجاد تعريف موحد للتداولية نظراً لاختلاف المرجعيات الفكرية والمعرفية لها. فتعددت تبعاً لذلك وجهات نظر الباحثين حول تصوراتها ومفاهيمها، فقد شغل مفهوم

التداولية حيزا واسعا في الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة ،وتعددت التعريفات الخاصة بمصطلح التداولية نذكر أهمها:

- **روبير دي بوجراند (1946-2008) Robert de Bougrande**: يعرف دي بوجراند التداولية في سياق حديثه عن لسانيات النص بقوله: « يتم تصنيف الجانب الاستعمالي للغة ضمن مفهوم التداوليات »³ يتضح من هذا التعريف أن التداولية تهتم بدراسة اللغة حال الاستعمال والتواصل
- **فرانسوا أرمنيغو (1942) Françoise Armengaud**: تقترح الفيلسوفة الفرنسية فرانسوا أرمنيغو عدة تعريفات للتداولية نذكر منها:
 - تقول أرمنيغو في تعريف التداولية: «إن أقدم تعريف لها هو تعريف تشارلز ويليام موريس 1938، إذ أن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي تلك العلامات حيث تصف هذا التعريف بأنه واسع يتعدى المجال اللساني (إلى السيميائية) والمجال الإنساني (إلى الحيواني والآلي) »⁴.
 - تعريف لساني قدمه كل من ماري ديلر Marie Diller وفرانسوا ريكاناتي Françoise Recanati « دراسة استعمال اللغة في الخطاب، والقوانين المصاحبة التي تثبت الميزة الخطابية للغة »⁵ فهما يهتمان بالمعنى الحاصل من الاستعمال.

3. نشأة الدرس البلاغي

إن المتتبع للمسار التاريخي للبلاغة العربية يجد أنها نشأت في جو عام تعددت فيه المجالات والطوائف الفكرية والعلمية التي أسهمت في نشأة البحث البلاغي، كالخطباء الشعراء، المتكلمين، اللغويين، النحاة، المفسرين والفقهاء. وللتراث البلاغي تاريخيا ثلاث مراحل، الأولى مرحلة التذوق الفطري لما يحتويه الخطاب الأدبي من أشكال جمالية دون معرفة المعايير الدقيقة لها والمصطلحات الخاصة بها، والثانية مرحلة التجميع التأليفي مع الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي نقل الدرس البلاغي إلى مرحلة جديدة نهاية القرن الخامس الهجري، حيث وضع قواعد نظرية النظم كأساس لفهم إعجاز القرآن ومقاييس لفهم بلاغة الكلام، معتمدا المنهج الاستقرائي للقواعد والأصول من كلام العرب، ومن الواضح في منهجه أنه كان يجمع مادته العلمية أولا، ثم يفحص ويقرر المسألة التي يريد طرحها، والثالثة

مرحلة التنظيم العلمي الدقيق في تقسيم ثلاثي: المعاني البيان والبديع . حيث جاءت مرحلة منهجية جديدة قائمة على تقسيم علوم البلاغة وتلقيدها وتعريف مفاهيمها على يد الإمام السكاكي (ت626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم"⁶

4. المرجعية الفكرية والفلسفية للتداولية

نميز في نشأة التداولية بين اتجاهين رئيسين هما

أ/ الاتجاه الفلسفي

▪ الفلسفة اللغوية

تشمل بحوث رواد فلسفة اللغة الطبيعية والفلسفة التحليلية في مقابل الاتجاه الشكلي، والتي تبحث كيف ينبغي الفكر الفلسفي؟

نشأت التداولية من رحم الفلسفة التحليلية وتحديدًا من أحد اتجاهاتها الثلاثة، وهي ثلاث تيارات كبرى: الوضعانية المنطقية مع كرناي، والظاهرانية اللغوية مع هوسرل، وفلسفة اللغة العادية مع لودفيدجنشتاين، وهذا الاتجاه الأخير انبثق أساس البحث التداولي نظرية أفعال الكلام مع جون أوستن John Austin، وقد تطورا النظريات شيئًا فشيئًا مع مجموعة من المهتمين بالمنطق والفلسفة، كان ذلك انطلاقًا من إلقاء محاضرات وليام جيمس والتي كان من روادها الفيلسوف جون أوستن صاحب نظرية أفعال الكلام التي نظّر لها في كتابه "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"، وكذا فكرة ألعاب اللغة مع "لودفيدجنشتاين" الذي اهتم باللغة المثالية، ثم تحول إلى اللغة العادية، مركزًا اهتمامه على الاستعمال الفعلي للغة، وكيف أن الأقوال تنجز أفعالًا، وهي إحدى روافد نظرية أفعال الكلام وعليه فالأصول الفكرية والفلسفية للتداولية تتمثل في الفلسفة التحليلية وتحديدًا اتجاه فلسفة اللغة العادية مع لودفيدجنشتاين، ونظر لها جون أوستن.⁷

ب/ الاتجاه اللساني:

▪ النظريات اللسانية الحديثة

منذ بداية نشاط نقد البنيوية في النصف الثاني من القرن الماضي، بدأ تشكيل الاتجاهات اللسانية التي أسهمت في تكوين الاتجاه التداولي،⁸ والتداولية التي تعيننا ظهرت أول مرة كعلم مستقل في تقسيم شارل ويليام موريس 1938 للعلوم التي تدرس العلامة، فهو يرى أن العلامة يمكن النظر إليها من خلال ثلاثة أبعاد: البعد التركيبي، وهو علاقة

الكلمات ببعضها البعض، البعد الدلالي، علاقة الكلمات بالعالم الخارجي، البعد التداولي، علاقة العلامات بمؤولها حيث جعل التداولية كعلم مستقل في سياق اقتراحه لعلم جديد متفرع عن السيمياء.

إضافة إلى تمييز فرديناند دي سوسير بين اللغة والكلام، والكلام هو التجسيد الفعلي للغة في الواقع، حيث كان له الأثر في توجيه البحث اللساني نحو دراسة الكلام مرادفا للخطاب باعتباره ممارسة فعلية للغة في إطار المجتمع. إضافة إلى جملة بحوث اللسانيات الوظيفية بدءا من حلقة براغ اللسانية ونظرتها الوظيفية في دراسة اللغة في إطار التواصل والمجتمع، ويتجلى ذلك من خلال جانبين: الأول وظيفة اللغة في المجتمع، وتمثله أعمال رومان جاكبسون ومخطط نظرية التواصل والوظائف الست للغة، وثانيهما: وظيفة العنصر اللغوي داخل التركيب مثلما يظهر في أعمال سيمون ديك في النحو الوظيفي الذي يدرس اللغة في مستواها التداولي وهو المحدد البنية التركيبية والدلالية؛ أي النظر في التركيب والدلالة من وجهة نظر تداولية، لذلك يعدّ النحو الوظيفي رافدا مهما من روافد التداولية.⁹

وأعمال تروبتسكوي في علم الفونولوجيا، وقد صنفت أعماله بأنها تهتم بالجانب الوظيفي للجملة؛ أي دراسة الجملة ضمن مفهوم التواصل باعتبار إن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، كما يظهر ذلك من مخطط التواصل المعروف بوظائفه الست عند رومان جاكبسون، ومن هنا ارتبطت اللغة بالتواصل.

وكذلك نظرية النحو النسقي في لندن مع جون فيرث Jhon Firth الذي طوّرها حين أدخل عليها نظرية السياق، التي أخذها من عالم الاجتماع مالمينوفسكي حيث ربط بين الدراسة الصوتية الوظيفية باعتبار اللغة أحداثا تواصلية لا يمكن دراستها بمعزل عن السياق الذي أنتجت فيه.

نستخلص أن المرجعية الفلسفية والمعرفية التي نشأت فيها البحوث التداولية تنطلق جميعا من الاهتمام بالتواصل، والاستعمال الفعلي للغة في الواقع؛ لأن ذلك ما يحدد بنيتها التركيبية والدلالية، فالمتكلم يبني كلامه وفق ظروف التواصل وأحوال المخاطب، لا وفق النظام اللغوي وحده.

5. الموضوع والمنهج والغاية

تبحث البلاغة العربية في القيم والمعايير التي يجب أن يتصف بها الكلام حتى يناسب المقام، لذلك قالوا: (لكل مقام مقال). وقد اتفق البلاغيون على أن الكلام من حيث بلاغته مراتب، بدءاً بالبلاغة وصولاً إلى الإعجاز، فوضعوا معايير، وشروطاً في تحقيقه « فالنحوي إذن يبحث في أحوال اللفظ مطلقاً ليتوصل إلى معناه الأول أي الحاصل من التركيب من حيث هو هو، في حين يبحث البلاغي " في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال " ليتوصل إلى "زوائد المعاني " أي الأغراض التي قصدها المتكلم عند استعماله التركيب «¹⁰ فالبلاغة تبحث في شروط بلاغة الكلام، من حيث فصاحة كلماته وتراكيبه ؛ أي بنية إعرابية لها أساس نحوي مفيد من حيث التركيب لمعنى أول، كما يجب أن يدل على غرض المتكلم من صياغته، فبلاغة الكلام لا تتحقق إلا بإفادته لمعنى ثانٍ وهو الخصوصية التي تناسب المقام وتتعلق بالغرض.¹¹ غاية البلاغة تعليم المتكلمين نظم الكلام بما يناسب الموقف الذي عليهم أن يتكلموا فيه فكانوا يحددون ما يجب أن يقوله الشاعر، مثلاً في مقام المدح ؛ يعني يذكر الصفات التي تناسب المدح بعض النظر عن اتصاف الممدوح بها فعلاً .

الملاحظ أن الدراسات البلاغية العربية بدأت بمنهجية وصفية وانتهت معيارية وذلك باستقراءها للمادة اللغوية بعد جمعها من مصادرها الأصلية، ثم محاولة تصنيفها واستنباط الأحكام والأسس والنظريات التي تحكمها، ثم أخذت تلك القواعد التي انتهت إليها، وأخضعت المادة اللغوية القديمة والمستحدثة لتلك القواعد .

بينما التداولية حسب التعريفات التي أوردنا سابقاً تهتم بدراسة اللغة حال الاستعمال في مقامات مختلفة مركزة على أغراض ومقاصد المتكلمين مراعية أحوال المخاطبين والظروف المحيطة بعملية التواصل من ظروف الزمان والمكان، والحالة الاجتماعية والنفسية، والخلفية الثقافية، وكل ذلك اعتماداً على السياق كونه عاملاً مؤثراً في إنتاج الأقوال من جهة، ومحور اشتغال البحث التداولي . فغايتها هي حل مشكلات التواصل من خلال رصد مقاصد وأغراض المتكلمين أثناء عملية التواصل .

تعدّ المقاربة التداولية باعتبارها إستراتيجية هامة في مقارنة الخطابات والنصوص، أقدر وأصلح المناهج نظراً لما يتيحته من آليات منهجية وأدوات إجرائية فعّالة بكل مباحثها، نحو: الإشارات، الإستلزام الحوارية، أفعال الكلام، وغيرها من المباحث التداولية التي

تجمع بين المنهج الوصفي والمنهج التفسيري التحليلي، لأننا بحاجة إلى تفسير الظواهر الاجتماعية والنفسية والثقافية والايديولوجية أكثر من وصفها، وأن الوصف وحده يعزل الخطاب عن المجتمع.

ثانيا: سلطة السياق في الدرسين البلاغي والتداولي

1. السياق (مقتضى الحال) في البلاغة العربية

إن العلم بالسياق مهم بالنسبة علماء البلاغة، فقد انصب اهتمامهم في دراسة السياق على فكرة " مقتضى الحال "، وأدركوا أن السياق أساس علم البلاغة ويمثل الجانب الاجتماعي من السياق العام، والسياق " context " كما يعرفه جون ديبوا « السياق هو مجمل الشروط الاجتماعية المتفوق عليها، والتي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني، وهو المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه في مقام ثقافي نفسي، والتجارب المشتركة بينهما والمعارف الخاصة بكل منهما»¹² يرتبط السياق ارتباطا وثيقا بالعناصر غير اللغوية وهي العوامل والجوانب النفسية والاجتماعية، والظروف الزمانية والمكانية المحيطة بعملية إنتاج النص، والتي تسهم في بناء النص وفهمه وتأويله، كما يمثل السياق محل اشتغال الدراسات اللسانية التداولية .

كما تعرف البلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " ذلك أن « اعتبار المطابقة وعدمها إنما يكون باعتبار المعاني والأغراض التي يصاغ بها الكلام لا باعتبار الألفاظ المفردة والكلم المجردة »¹³ نجد أن مقتضى الحال هو ما يتطلبه المقام من صيغة الكلام ومحتواه . فالبلاغة تهتم بالكلام مرادفا للخطاب من حيث فصاحة كلماته وتراكيبه مع مطابقة ما يقتضيه حال الخطاب، وهو ما يناسب من القول المقام ؛ أي مناسبة القول للسياق الذي قيل فيه ، فهم يجعلون الذكر والحذف وبعض العبارات معللة بالأحوال، والسياق (المقام) عندهم هو المحدد للغرض لذلك قالوا: (لكل مقام مقال)، فمقام الدعاء يتطلب خطابا يختلف عن ذلك الخطاب الذي يتطلبه مقام التهئة، فكلما كان الخطاب مطابقا للمقام زادت بلاغته.

2. الفرق بين السياق ومقتضى الحال (المقام)

لعل من أكثر المفاهيم تداخلا في الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة هما مصطلحا "السياق" و"المقام"، لذا وجب التمييز بينهما على المستوى المرجعي من جهة، ذلك أن مصطلح المقام قد شاع استعماله عند العرب قديما في الدراسات البلاغية، في حين أن مصطلح السياق

تناوله علماء الغرب في الدراسات اللسانية الحديثة، أما من جهة المفهوم، فهناك فروقا بين ما كان يقصده التداوليون، وهو أن مصطلح السياق يطلق على مفهومين هما: السياق اللغوي والمقصود منه البيئة اللغوية التي تحف الكلمة، والسياق غير اللغوي وهي ظروف الزمان والمكان والعوامل النفسية والاجتماعية والخلفيات الثقافية والإيديولوجية المحيطة بالنص، وبين ما يقصده البلاغيون العرب بمصطلح مقتضى الحال (المقام)، فقد ارتبط المقام في الثقافة العربية بالمعيارية، وهو ما يتطلبه المقام من صيغة الكلام ومحتواه، أي البحث في المعايير التي يجب أن يكون عليها الكلام، أو ما يجب أن يتصف به القول بما يتناسب مع المقام، وهذا ما أشار إليه "تمام حسان" في تحديده لمفهوم المقام عند البلاغيين العرب من خلال قوله: «لقد فهم البلاغيون (المقام) أو (مقتضى الحال) فهتم سكونيا مجردا ثم قالوا (لكل مقام مقال) (...) فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة (...) وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكوني (static) فالذي أقصده ليس إطارا ولا قالبا، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالمتكلم (Speech event) وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عملية الاتصال (...)، وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث (Context of situation) الذي يستعمله المحدثون»¹⁴

يتضح لنا أن السياق يتميز عن المقام على المستوى المرجعي والمفهومي كون البلاغة العربية مبنية على مبدأ (لكل مقام مقال)، فغاية البلاغة تعليم المتكلمين نظم الكلام بما يناسب الموقف الذي عليهم أن يتكلموا فيه فكانوا يحددون ما يجب أن يقوله الشاعر في مقام المدح، يعني انه يذكر الصفات التي تناسب مقام المدح بعض النظر عن اتصاف الممدوح بها فعلا، ومن أجل التعليم تصور البلاغيون (المقام) صور نمطية ساكنة، فالبلاغة معيارية تبحث في القيم والمعايير التي يجب أن يتصف بها الكلام، لذلك تعاملوا مع قضية الصياغة وتخير الألفاظ بطرائق نمطية تضع العملية اللغوية في قوالب ليسهل تعلمها وحفظها على الرغم من إن البلاغة العربية بدأت وصفية وانتهت معيارية في شكل قوالب عامة تطلق أحكاما قيمية وذوقية على الأقوال عكس التداولية التي نصف القول كما هو لا كما يجب أن يكون .

وعليه، ترجم الباحثون مصطلح (Context) بالسياق وهي الترجمة الأصلح حسب "تمام حسان" للتعبير عن معنى الممارسة الفعلية للغة، كما يفضل لفظ المقام ليعبر به عن سياق الموقف (Context of situation).¹⁵

ونستخلص من جملة ما سبق أن مفهوم السياق في معنى الظرف الخارجي يراد به في التراث العربي لفظ المقام، ولذلك يعدّ مصطلح السياق أعم والمقام جزء منه . ولعل نقطة الالتقاء بين التداولية والبلاغة هو السياق ؛ أي سياق الموقف يتضح أن من أهم اهتمامات البلاغة العربية ومجالاتها الاتصال والابلاغ مراعية شروط وظروف عملية التواصل، وكل ما يرتبط بالعملية التواصلية من المتكلم المتلقي، السياق، الخطاب، وبهذا المفهوم تشترك البلاغة مع ما تناوله التداولية مما يؤكد إن البلاغة العربية درست اللغة حال الاستعمال وكل ما يرتبط بالتواصل والإبلاغ من شروط وملابسات .

ثالثا: ملامح التفكير التداولي في الدرس البلاغي:

سنعرض أهم القضايا البلاغية التي تشترك في تناولها مع التداولية مقسمة بحسب اتصالها بالعناصر التواصلية الثلاث (المتكلم، المخاطب، الخطاب):

1. المباحث التداولية في البلاغة العربية

1.1. الاهتمام بالمتكلم في البلاغة العربية

1.1.1. القصد:

للمتكلم دور بارز في البلاغة العربية كونه منتج الخطاب الوحيد الذي يستطيع تحديد قصدية الخطاب، بل إن الغرض من الكلام في كثير من الحالات يرتبط بنيته وقصده، ذلك أن المعنى متعدد ويرتبط بالمخاطب وتأويله للخطاب، أما القصد، فواحد ويرتبط أساسا بالمتكلم ونيته من إنشاء الخطاب .

نجد أن للقصد أهمية بالغة في الدرس البلاغي، فهو الأساس الذي تقوم عليه عملية التواصل والإبلاغ، كما أن مفهوم القصد يتولد عنه فعل كلامي، أي الانجاز الفعلي للغة أساس البحث التداولي، كما يشير إلى ذلك " ابن خلدون " (ت 808هـ) «اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام»¹⁶ هذا من أحسن التعريفات التي تربط اللغة بالاستعمال، كونها تعبر عن قصد

المتكلم، إضافة إلى أن مفهوم الانجاز الفعلي للغة مبني أساسا على قصد المتكلم من كلامه فهو يعبر عن إرادته ونيتته، وعليه يكون الكلام ذا فائدة، وهو ما يقابله في البحث اللساني التداولي الفعل الكلامي؛ أي الانجاز الفعلي للغة في الواقع.

2.1.1. فصاحة المتكلم

تقع الفصاحة وصفا للكلمة، الكلام والمتكلم، فنقول: متكلم فصيح؛ أي منطلق اللسان يعرف جيد الكلام من رديئه، وحسب القزويني في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" فصاحة المتكلم تظهر في «ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح»⁽¹⁷⁾ تقوم الفصاحة أساسا على القدرة أو الملكة لدى المتكلم التي تمكنه من التعبير عن نيته وإرادته، كما أن فصاحة المتكلم شرط من شروط بلاغة الكلام عند البلاغيين إلى جانب فصاحة كلماته تراكيبه مع مطابقته حال الخطاب ومقامه، أي مراعاة أحوال السامعين، كما يشترط أن يكون المتكلم فصيحاً والأسلوب الذي يستعمله لإيصال الغرض مناسباً للمقام الذي قيل فيه، وهذه الشروط لا تختلف عما يقترحه "بول قرايس" في قوانين المحادثة التي تقوم على مفهومين هما: الإستلزام الحوارى، ومبدأ التعاون، حيث يرى أن كل كلام تواصلى محكوم بمبدأ التعاون، وحدد له أربعة مبادئ، وأي خرق لمبدأ من هاته المبادئ ينتج عنه الإستلزام الحوارى وركز على مبدأ التعاون باعتباره ركيزة في قيام الحوار والاستلزام الحوارى هو المعنى المستلزم الذي لا يصرح به المتكلم، ولكنه يظهر عند التأويل وحدد لمبدأ التعاون أربعة مبادئ:

- مبدأ الكم: وهو أن يقول المتكلم ما هو ضرورى ويحقق الغرض وهذا المبدأ يتفق مع شرط مراعاة السامع.
- مبدأ الكيف: لا تقل إلا ما تعتقد أنه صحيح ومقنع وتستطيع البرهنة عليه.
- مبدأ الطريقة: كن واضحاً، أوجز، رتب كلامك، تجنب اللبس والإبهام، والاضطراب في الترتيب والخلل المنطقى، ويرتبط هذا المبدأ بفصاحة المتكلم ومدى قدرته على التعبير بأوجز لفظ، وأبلغ تعبير.
- مبدأ المناسبة: أن يكون الكلام مناسباً للمقام وهذا ما نجده في مقتضى الحال، وهو ما يتطلبه المقام من صيغة الكلام ومحتواه.

3.1. الاهتمام بالمخاطب في البلاغة العربية

1.2.1. مراعاة حال المخاطب

يحظى المخاطب في العملية الإبلابية في الدرس البلاغي العربي بأهمية لا تقل عن أهمية المتكلم، فالتكلم حين ينشئ خطابه يراعي فيه مقام الخطاب وأحوال السامعين والأسلوب الذي يستعمله لإيصال غرضه وتلك سمة التداولية التي تتقاطع فيها مع البلاغة العربية.

ولعل أهم ما يبين الاهتمام بالسامع في البلاغة العربية، حديث المبرد إلى المتفلسف الكندي من سؤاله إلى المبرد بأنه يجد في كلام العرب حشوا يظهر من قولهم: (عبد الله قائم)، ثم (إن عبد الله قائم)، ثم (إن عبد الله لقائم)، فأجابه المبرد: «بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه. وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال (أحدهم) سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عند إنكار منكر لقيامه»¹⁸، وهنا يمكن القول بأن البلاغة العربية ميزات بين ثلاثة مخاطبين:

- 1 المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر ويسمى الخبر في هذا الحال، خبرا ابتدائيا.
- 2 المخاطب الشاك والمتردد، وهناك يلجأ المتكلم إلى تأكيد خبره بمؤكد واحد، ويسمى الخبر عندها: خبرا طلبيا.
- 3 المخاطب الجاحد والمنكر للخبر إنكارا يحتاج لتأكيد الخبر بأكثر من مؤكد ويسمى هذا الخبر: خبرا إنكاريا.¹⁹

2.2.1. الحذف:

من أهم القضايا التي ترتبط بالسامع ومدى معرفته بحيثيات الخطاب، وللحذف أهمية كبيرة سواء عند النحاة أو البلاغيين العرب، كون اللغة العربية تمتاز بخصائص عدة؛ من بينها الميل إلى الحذف والإيجاز والاختصار، وظاهرة الحذف تتشارك فيها اللغة العربية مع باقي اللغات الأخرى، حيث يعتبره "الجرجاني" باب دقيق في اللغة «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدر أنطق إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبني»²⁰ ولذلك عدّ علماء العربية التعبير الموجز غير المخل بالمعنى من البلاغة والفصاحة.

إن أسلوب الحذف نشاط ذهني يلجأ إليه المتكلم لعلم المتلقي به معتمداً على السياق أو مقام التلفظ الذي ورد فيه الملفوظ، وتقدير المحذوف عملية ذهنية أيضاً يقوم بها المتلقي، لإتمام القول عن طريق التأويل أو الافتراض المسبق (الذهني) ليصح المعنى المطلوب ويتلاءم مع قصد المتكلم. ويلتقي موضوع الحذف وارتباطه بالسامع بمفهوم الافتراض المسبق الذي هو أحد مجالات التداولية، يعرفه "جورج يول" بقوله: «إن عمليات الافتراض هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلماً بها لدى كل أطراف»²¹ فالافتراض المسبق عملية ذهنية تسبق التلفظ بالخطاب، فهي معلومات تسبق التلفظ بالخطاب وينبني عليها التحدث، وعليه فالافتراض المسبق يهتم بدراسة المعارف المشتركة بين المتكلم والسامع، أو ما ينبغي أن يكون معروفاً أو يفترض العلم به مسبقاً قبل إجراء الخطاب.

3.2. الاهتمام بالخطاب في البلاغة العربية:

ارتبط مفهوم الخطاب في التراث العربي عموماً بالكلام، فالخطاب يستعمل مرادفاً للكلام، والخطاب لغة؛ تنقسم لفظة الخطاب في المعاجم العربية عدة دلالات ومعان، ففي معجم "لسان العرب" لابن منظور وردت لفظة الخطاب من الجذر (خطب) «خطب: الخطبُ: الأمر أو الشأن عظم أو صغري، والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخطاب والمخاطبة، مراجعة الكلام»²². وجاء في معجم "أساس البلاغة" للزمخشري تعريف الخطاب «خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، وخطب الخطيب خطبة حسنة وخطب الخاطب خطبة جميلة»²³. يتضح من خلال التعريفين السابقين أن الدلالة المعجمية للفظ الخطاب تدور حول الدلالة اللغوية المركزية، وهي: الكلام المقترن بالمشافهة، والموجه إلى الغير قصد التأثير والإقناع في إطار عملية التواصل، وذلك بحسن الصوت وحسن اختيار الألفاظ ودقة نظمها، لإيصال الرسالة سواء كانت خطبة أو خطبة.

فالخطاب عند البلاغيين يستعمل مرادفاً للكلام، إلا أن بينهما فروقا، فالخطاب أدق وأخص من الكلام في الدلالة على توجيه الكلام إلى الغير قصد التأثير والإقناع ويستثنى من ذلك الكلام، فابن جني (ت392هـ) يعد الكلام خطاباً إذا كان له أغراض ومقاصد، وعليه فالخطاب رسالة شفوية أو مكتوبة يوجهها المتكلم إلى المخاطب قصد التأثير والإقناع في مقام معين محكوم بظروف الزمان والمكان.

وستتناول في هذا العنصر أهم ما يرتبط بالخطاب في ذاته في البلاغة العربية: الخطاب ومقتضى الحال وقد تعرضنا له في المبحث السابق، والإنشاء والخبر (نظرية أفعال الكلام). فقد تناول البلاغيون في باب علم المعاني (الخبر والإنشاء) وعلاقته بالخارج (السياق الخارجي)، فالخبر ما احتمل الصدق أو الكذب بحسب درجة مطابقته للسياق الخارجي، أو مخالفته، أما الإنشاء، فلا يرتبط بمفهوم الصدق والكذب فهو ما لا يحتمل الصدق ولا الكذب، وينقسم إلى إنشاء طلبي وغير طلبي، والطلب هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وغير الطلبي عكس ذلك، ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وهي الفكرة نفسها التي عرضها "جون أوستن" في نظرية أفعال الكلام حيث ميز بين نوعين من الأفعال تقريرية وإنجازية من حيث قوتها الإنجازية، ويقول في ذلك "أحمد المتوكل": «من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية (الخبر والإنشاء) التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأستينية (الوصف، والإنجاز) كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء، فالجملة الخبرية، عندهم، هي الجملة التي «تحتل الصدق أو الكذب» في حين أن الجملة الإنشائية هي الجملة المتوفرة فيها خاصيتان: (أ) أنها لا تحتل الصدق أو الكذب (ب) أن «مدلولها يتحقق بمجرد النطق بها»...»²⁴

خاتمة

- من خلال ما تقدم ذكره نخلص إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:
- -تجديد الدرس البلاغي لم يكن اعتبارياً، وإنما هو نتيجة للتطورات التي شهدتها الدرس اللساني الغربي الحديث والمعاصر.
- -إن إعادة قراءة التراث البلاغي العربي يسهم في إضاءة عدة جوانب منه وإعادة بعثه من جديد بما يتلاءم مع معطيات الدرس اللساني الغربي الحديث والمعاصر، مما يضمن لنا:
- -إحياء المصطلحات التراثية وإعادة بعثها من خلال محاولة التأصيل للمصطلح الغربي في التراث العربي.
- -إيجاد مصطلحات علمية دقيقة وموحدة عند ترجمة المصطلحات الغربية إلى اللغة العربية.

- البلاغة العربية في دراستها للخطابات المتنوعة قرآنا، حديثا، شعرا وخطابة اهتمت بتقديم وصف شامل وكامل لعناصر العملية التواصلية من (المتكلم، المخاطب، الكلام) في إطار هذا التوصيف عنيت بمقاصد وأغراض الخطاب وأحوال المخاطبين، وشروط الخطاب الذي يحقق الإفادة لدى المتلقين، والمؤشرات اللغوية وغير اللغوية المتحركة في ذلك، مما أكسب البلاغة أبعادا لسانية تداولية مهمة، تضمن لها التجديد، التطور والتواصل المعرفي مع معطيات الدرس اللساني الحديث والمعاصر.
- إن المتأمل في التراث البلاغي العربي على اختلاف علومه، يجد أن العرب القدامى لم يفصلوا البنية اللغوية عن الاستعمال، فوصفوا اللغة أثناء استعمالها خطابا، وهذا يدل على أنهم مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بوصفه فلسفة وعلمًا ورؤية واتجاهًا لسانيا .

قائمة المصادر والمراجع :

- [1] Jean Debois : dictionnaire de linguistique , librairie la rousse, Paris , première édition , 197(6) .
- [2] ابن خلدون ، المقدمة ، نقلا عن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، 2009
- [3] أبو هلال العسكري ، الصناعتين الكتابة والشعر ، تحت : علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل ابراهيم منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1986 ..
- [4] أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 2010.
- [5] تمام حسان ، الأصول ، نقلا عن عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط1،
- [6] جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسانك العرب ، نشر أدب الحوزة ، مجلد الثامن ، دط 1405هـ،
- [7] جورج براون و جورج يول ، تحليل الخطاب ، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع -جامعة الملك سعود، دط، دت.
- [8] حسين نمير، محمد صابري، "صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني على ضوء رحلة أبو سالم العياشي"، مجلة دراسات تاريخية، مج10، ع1، 2022
- [9] حمادي صمود ، مقالات في تحليل الخطاب ، منشورات كلية الآداب والانسانيات جامعة منوبة ، 2008.
- [10] خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، ط1، 2009 .

- [11] الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، نقلا عن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم
- [12] روبر دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط²، 2007
- [13] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر ، دط ، دت .
- [14] عبد المطلب محمد ، البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونغمان ، مصر ، ط¹، 1997
- [15] فرانسواز أرمنيغو ، المقاربة التداولية ، تر: سعيد علوش ، مركز الانتماء القومي ، الرباط ، دط ، 1986 ،
- [16] القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط¹، 1980 .
- [17] محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط¹، 1998 ، ج²

التهميش والاقتباس:

- ¹ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسانك العرب ، نشر أدب الحوزة ، مجلد الثامن ، دط ، 1405هـ ، ص 419
- ² أبو هلال العسكري ، الصناعتين الكتابة والشعر ، تحت : علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1986 ، ص 10 .
- ³ روبر دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط²، 2007 ، ص 83 .
- ⁴ فرانسواز أرمنيغو ، المقاربة التداولية ، تر : سعيد علوش ، مركز الانتماء القومي ، الرباط ، دط ، 1986 ، ص 5 .
- ⁵ المرجع السابق ص 5 .
- ⁶ ينظر : عبد المطلب محمد ، البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونغمان ، مصر ، ط¹، 1997 ، ص 21 .
- ⁷ ينظر: خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، ط¹، 2009 ، ص 47، 50، 51، 52 .
- ⁸ المرجع نفسه ، ص 59
- ⁹ المرجع السابق ، ص 60 .
- ¹⁰ حمادي صمود ، مقالات في تحليل الخطاب ، منشورات كلية الآداب والانسانيات جامعة منوبة ، 2008 ، ص 31
- ¹¹ المرجع نفسه ، ص 27، 26 .
- ¹² 12-Jean Debois : dictionnaire de linguistique , librairie la rousse, Paris , première édition , 1973, p120.
- ¹³ حمادي صمود ، مقالات في تحليل الخطاب ، ص 30 .
- ¹⁴ حمادي صمود ، مقالات في تحليل الخطاب ، ص 30 .
- ¹⁵ ينظر ، المرجع نفسه ، ص 41 .
- ¹⁶ ابن خلدون ، المقدمة ، نقلا عن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، 2009 ، ص 170 .

- ¹⁷ القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1980، ص 79.
- ¹⁸ الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، نقلا عن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، ص 177
- ¹⁹ ينظر : المرجع نفسه ، ص 178
- ²⁰ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر، دط ، دت ، ص 146.
- ²¹ جورج براون و جورج يول ، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع -جامعة الملك سعود، دط ، دت ، ص 37.
- ²² ابن منظور، لسان العرب ، مج 5، ص 97.
- ²³ محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1998، ج2، ص 167، 168.
- ²⁴ أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان، ط2، 2010، ص 42.